القصص

مدام بوفارى

لجوستاف فلوبير

تعليق وتلخيص محمد سليمان على

قسم الـكاتب الخالد قصته الخالدة إلى ثلاثة أقسام :

فالقسم الأول يصف نشأة مسيو بوفارى إلى أن احترف مهنة الطب ، ويبين كيف اهتمت به أمه ، وكيف زوجته من أرملة سنها خمس وأربعون سنة ودخلها مئتان وألف فرنك . وقد ظن المسكين أنه سيبدأ بزواجه عهداً مستقلاً سعيداً ، ولـكن امرأته أثبتت أنها « الفرس الأقوى » ، فى المجتمعات يجب عليه أن يقول هذا ويمسك عن ذاك ؛ وكان لزاماً عليه أن يصوم كل يوم جمعة ، وأن يلبس ما تشير به ، وأن ينفذ أوامرها فيما يتعلق بالعملاء الذين توانوا عن الدفع ، وكانت تفتح رسائله وتتنصت من وراء الحاجز حين يختلى فى غرفته الخاصة بالعملاء إذا كن نساء

ذهب يوماً يعود مريضاً فأعجبته ابنتــه (إما) ذات العيون العسلية التى تبدو لطول أهدابها سوداء ؛ وعاد بوفارى مريضه وكرر العيادة ، ثم ماتت زوجه فتزوج (إما) وكان سعيــداً ، « كان العالم ينحصر فى نظره فى محيط أثوابها . وكان يؤنب نفسه لعدم حبه إياها حباً أكثر ؛ وأحياناً كان يعود بعــد خروجه ليراها ثانيــة وهى ما تزال فى غرفتها تلبس ، وبينما كان يقبلها فى أسفل عنقها ، كانت تصيح هى فى وجهه »

وكانت قبل زواجها تظن أنها تحب . ولـكن السعادة التى كانت تتوقعها من الحب لم تظفر بها فظنت أنها خدعت ، ووطنت العزم على أن تكتشف تماماً معنى هذه المدلولات : السعادة ، الأهواء ، النشوات : التى كانت إلى ذلك الوقت تبدو لها جميلة على صفحات الـكتب

وانهارت أحلامها فى الحب وشهر العسل والزواج ، وأخذت تنسج لنفسها أحلاماً أخر . وبقدر ما كانت عـلاقتها الزوجية تتوثق كان فى نفسها تنافر داخلى ينمو ويزداد

« كان حديث شارل عمومياً كأفريز شارع تمشى عليـه أفكار كل انسان وأى إنسان فى أثوابها العادية دون أن تثير عاطفة أو ضحكاً أو تفكيراً . كان يقول إنه أثناء إقامته فى (روان) لم يجد لديه ما يدفعـه إلى الذهاب إلى المسـرح ليرى الممثلين من باريس . ولم يكن يعرف السباحة ولا لعب السيف ولا إطلاق الغدارة ؛ وفى ذات يوم لم يستطع أن يشرح عبارة خاصة بركوب الخيل قرأتها فى قصة : أما يجب على الرجل أن يعرف كل شىء وأن يعـــلم المرأة انبساط الأهواء ولذائذ الحياة وأسرار العيش ؟ ولـكن شارل ماعلم شيئاً وما عرف شيئاً ، وما رغب فى شىء . كان يعتقد أن زوجه سعيدة وهى تتعذب تحت هدوئه الذى لا يضطرب وسكينته التى لا تخف »

ورغم ذلك كانت تمنحه حبها . ففى الحديقة ، فى الليالى المقمرة ، كانت تعيد على سمعه كل الأغانى الوجدانية التى حفظتها عن ظهر قلب . ولـكنها فى النهاية لا تجد زوجها ازداد غراماً ولا حماسة . « ولما ضربت زماناً على الصخرة الجاثمة على قلبها دون أن تبعث منها شرارة ما ، كانت تجد صعوبة يسيرة فى إقناع نفسها بأن غرام شارل لا يعد مفرطا بعد »

وعكفت على قراءة مجلات السيدات والأزياء والأثاث ابتغاء التسلية ، وعلى قراءة بلزاك وجورج ساند لتنقب فيهما عن الأرضاء الخيـالى لأهوائها الشخصية . وكانت ذات أطماع : لِمَ لم تكن زوجة لعالم يدوّى اسمه فى كل مكان ؟ وبدأت تكره زوجها لقلة طموحه وأصبحت تجد حياتها مملة جوفاء

والحق أنها كانت تنتظر حادثاً فى حياتها . كانت تصحو إذا تنفس الصبح فتظن اليوم قد حل . وتنصت إلى كل حركة ، حتى إذا جاء الغروب أمست أحزن من قبل ، وحنت إلى الغد .

ولما كانت تضجر من مدينة (توست) ظن زوجها أن سبب الداء حادث محلى . وقرر أن ينتقل إلى بلدة (بونفى ـ لاباى)

وفى القسم الثانى يصف الانتقال الى البلدة الجديدة ، وتعارفهما للصيدلى هوميه وليون كاتب المحامى . ويبدأ الحديث بين هذا وبين مدام بوفارى فيكتشفان بينهما تمازجاً فى الأفكار وتشاركا فى العواطف ، فكلاهما يحب الطبيعة والموسيقى ، فمدام بوفارى تقول :

ـ آمل أن أجد طرقا جميلة فى هذه الأنحاء

ـ يؤسفنى أن أقول إنها قليلة . هناك مكان يدعونه (المرعى) فوق مرتفع التلال ، عند حافة الغاب ، ولقد طالما قصدته فى الآحاد ومعى كتاب كى أرى الغروب

ـ لست أظن أن هناك ماهو أجمل من الغروب ، ولاسيما عند شاطئ البحر

ـ أوه ، إننى أقدس البحر !

ـ ألا تظن أن العقل يبدو أكثر حرية حين نواجه ذلك الخضم غير المحدود ، وأن أرواحنا لتتسامى حين نسبح فى تأملاته ، وأنه يوحى إلينا بالأفكار عن المثل العليا وعن اللانهاية ؟

ـ كذلك الحال فى مناطق الجبال

واندفعا يتحدثان عن الموسيقى الألمانية ، والأوبرا الايطالية ، إلى أن قال زوجها رداً على كلمة لهوميه عن تنسيق الحدائق :

ـ زوجتى لا تُعنى بذلك ، إننا ننصحها بالرياضة ، ولكنها تفضل أن تظل فى غرفتها تقرأ

وقال ليون ـ هذا ما أفعل . وإنى لعلى يقين بأنه ما من شىء يفوق الجلوس فى المساء بجوار الموقد مع كتاب نفيس ، بينما الريح تسفع زجاج النوافذ ، والمصباح يضىء ويلمع فى الغرفة

وقالت وهى تحدجه بعينيها السوداوين النجلاوين ـ هذا ما يختلج بنفسى

ـ وينسى المرء كل شىء بينما الساعات تتعاقب . ويجول فى البلاد التى يظن أنه يراها ، وأما أفكاره التى تحملها الحوادث المختلفة فانها تجد اللذة كل اللذة فى كل تفصيل ، أو تتبع سير المخاطرات والحوادث ، وتصبح جزءاً من الشخصيات المختلفة ، ويتخيل المرء أن نفسه هى التى تتنفس فى ملابسهم »

وضمت مدام بوفارى طفلة صغيرة وتركتها عند امرأة ترضعها

وكان ليون يفكر فيها وهى تفكر فيه ، وتراقبه وهو يمر تحت نافذتها إلى محل عمله مرتين كل يوم . وكانوا أحياناً يجتمعون فى المساء ، بوفارى وهوميه يلعبان الورق ، أما ليون فينصرف إلى الحديث مع مدام بوفارى

وأخيراً قرر أن يصرح لها بحبه . إلا أنه كلما عزم لا يجد الشجاعة . وكان يكتب الرسائل ثم يمزقها . وكانت شجاعته تفارقه فى حضرتها ، أما هى فلم تسأل نفسها إن كانت تحبه ، فى اعتبارها أن الحب يأتى فجأة مع دوى قاصف وبرق خاطف ، عاصفة من السماء تهب على الحياة فتقلبها رأساً على عقب ، وتعبث بالارادة كما يحمل الهواء ورقة جافة وتلقى بالقلب فى هوة مالها من قرار

ولكنها كانت تراه يتقرب اليها ، وتحصى حركاته وكلماته عند ما تستلقى على فراشها ، وتستعيد نظراته ثم تقول لنفسها وهى تضم شفتيها كأنما تتأهب لقبلة « ما أبهج ذلك ! أهو كلف ؟ وبمن إن لم يكن بى ؟ » ولكنها لم تشجعه . وتظاهرت بأنها تحب زوجها . وكانت كلما أحست بأنها تهواه ، قاومت لتقلل من شعورها . وكانت تأمل من ليون أن يفهم ذلك . وكلما همت بتأنيب نفسها عادت تفتخر وتقول لنفسها « إننى شريفة »

وأخيراً ظن الشاب أنها لا تريده فترك البلدة إلى باريس

يلى ذلك لقاؤها بمسيو رودولف بولانجيه الشاب الغنى الجميل الخبير بالنساء والغرام . يقرأ فى عينيها مللها من حياتها وزوجها فيرغب فيها ويضع لذلك خطة محكمة وتساعده الظروف فيظفر بها . وتبدأ حلقة من الحب القوى المشبوب الجارف . وتندفع المرأة حتى تصل إلى درجة التهور . وكلما ازدادت لعاشقها حباً ازدادت لزوجها مقتاً . ولأجل عشيقها الذى يملك ثروة من التجربة أخذت تعتنى بنفسها وتبالغ فى الزينة والتأنق . وأعطته مفتاح الحديقة الخلفى ، فكانا يتقابلان طرفاً من النهار وزلفاً من الليل ، وفى يوم حضوره كانت تملأ الغرفة بالأزاهر ، وتتزين بكل ما تملك من حلى . ولم يعاتبها شارل على تبذيرها قط

وكان ليريه البائع المتجول يجلب اليها كل ما تطلب ويغريها بطلب المزيد ، وما عليها إلا أن توقع على سكوك يقدمها لها فيصبح العزيز ملكاً لها . ولما ألح فى طلب نقوده بعد زمن ، دفعت له مالاً أتى لزوجها من عميل ، ولم تخبره بذلك

وأخذت تغدق على عشيقها الهدايا ، وتقول له متدللة :

ـ « حينما تدق الساعة اثنتى عشرة مرة فى الليل يجب أن تفكر فىّ » . فاذا اعترف لها بأنه لم يفعل كانت تؤنبه ، ثم تختم بكلمتها الأبدية

ـ « أمغرم بى أنت ؟ »

ـ « أجل . طبعاً »

ـ « كثيراً ؟ »

ـ « مافى ذلك شك »

ـ « ولم تحب غيرى ، هل فعلت ؟ »

ـ « اتظن أنى كنت عذراء حين تلاقينا . »

ثم تبكى فيترضاها فتقول :

ـ « ذلك لأنى أحبك كثيراً . أحبك حتى لا أطيق الحياة بدونك . وأحياناً أقول لنفسى . أين هو ؟ ربما ينعم بالحديث مع نساء أخريات .. هن يبسمن له وهو يدنو منهن . ولكنك لا تهتم بهن ، أليس كذلك ؟ كثيرات من يفقنى حسناً ، ولكنى أتقن الحب أكثر منهن . إننى خادمتك وخليلتك ، وأنت مليكى ومعبودى . كم أنت رحيم وجميل وماهر وقوى ! »

وبدأ المعبود كعادته يسأم العاطفة العارية والكلمات المعادة .

ولما عيل صبرها من زوجها وأمه ، قررت الفرار مع عشيقها وأخبرته بعزمها . فأخذ يسوف ويؤجل ، وهى تؤمل وتستعد . وأخيراً حل الموعد المضروب ، وبدلاً من أن يحضر أرسل اليها كتاباً يخبرها فيه بأنه لأجلها لن يطاوعها على فكرتها ، ويريها أن فرارهامعه عاقبته فى النهاية وخيمة عليها ،ويختمه بقوله : « . . إننى أعاقب نفسى بالنفى للضرر الذى سببته لك . سأذهب بعيداً . لا أدرى أين . لا تنسى الرجل البائس الذى تسبب فى شقائك ، وعلمى ابنتك اسمى حتى تذكره فى صلواتها . وحين تقرئين هذه الأسطر البائسة أكون بعيداً ، إذ يجب أن أتجنب الأغراء حتى لاأراك ثانية . كونى شجاعة . سأعود ، وربما نستطيع بعد أن نتحدث بهدوء عن حبنا الأول ، وداعاً . . »

ولما قرأت الخطاب أغمى عليها ، ومرضت ثلاثة وأربعين يوماً . وفى أثناء ذلك استدان زوجها ثمن الأدوية ، وتدخل (ليريه) وتمكن أن يجعل بوقارى يوقع على كمبيالة لمدة ستة أشهر بالأشياء التى أخذتها مدام بوقارى . وبعدها طلب بوقارى من الرجل ألف فرنك بدفعها له بعد سنة سبعين وألفاً

وأخيراً تحسنت صحتها قليلاً ولكنها أحست الزهد ، وألح زوجها أن تحضر حفلة تمثيل فى روان وهناك قابلا ليون

وفى القسم الثالث تبدأ مع ليون على أنقاض الغرام الأول حلقة غرام آخر مستهتر عنيف . والحق أنها قاومت فى مبدإ الأمر . فهى مازالت متشائمة خائرة تحت تأثير الصدمة الأولى . إلا أن ليون الذى غيرته الحياة الباريسية حملها فى تيار جارف . وفى فندق فى المدينة أخذا يلتقيان يوماً كل أسبوع . وكانت تتذرع أمام زوجها بأنها تتلقى دروساً فى البيانو على معلمة فى روان

واندفعت مرة أخرى فى شراء هداياها فزادت ديونها وتعددت الصكوك وذاق ليون معها للمرة الأولى رقة الاناقة النسوية التى لا يعبر عنها وصف ، وأصبحت لا غنى لها عن لقياه ، وكانت تذهب لتدعوه من محل عمله ، وترتعش إذا فكرت أن حبه قد يتلاشى يوماً ما

وبدأ ليريه يحاصرها مطالباً بنقوده ، عارضاً كمبيالات أخرى ، وخضعت لسحر النقود فأخذت توقع عليها وتندفع فى متعتها

وأخيراً حول ليريه بضعاً من هذه الكمبيالات إلى مالى آخر . ولما ذهبت تسأله جلية الخبر جعلها توقع على أربع كمبيالات أخر ، وأخذت ترسل إلى عملاء بوقارى المدينين وتطلب النقود منهم وترجوهم ألا يخبروه « لأن ذلك يؤثر فى كبريائه . »

وفى ذات يوم استلمت ورقة حجز رسمية . وأرسلت لليريه وهى دهشة . وصارحها الرجل بأن ذلك هو السبيل الوحيد لاسترداد نقوده . ولم يقبل منها أى توسل أو رجاء

وذهبت على عجل إلى ليون وطلبت منه أن يبحث لها بأى وسيلة عن ثمانية آلاف فرنك فلم يفلح ، فعادت أدراجها ذاهلة مدحورة . وفى الصباح التالى نشر الاعلان الرسمى للحجز فى الميدان

ونصحتها خادمتها أن تذهب إلى مسيو (جيللومين) المحامى الغنى . فذهبت تشكو اليه ليريه وقصت عليه المسألة فقال :

ـ ولكن لِمَ لم تخبرينى السبب ؟ لماذا . . . . أخائفة أنت منى ؟ أرجح ان لدى عذراً للشكوى . ما نكاد نتعارف ، لكنى أعترف لك بأنى أشد العبيد تفانياً ، وأملى ألا يخامرك فى ذلك شك

وأمسك بيدها وانكب يقبلها بشراهة ، وأبقاها على ركبته ، بينما كان يعبث بأناملها ، وأحست بأنفاسه على خدها ، وقالت :

ـ « سيدى انى أنتظر » وشحب وجه الرجل فجأة وقال « ماذا ؟ » قالت : ـ « النقود . »

فقال : « لكن . . . » ثم أجاب الرغبة الحادة قائلاً : « حسن . أجل ! » وركع وهو يقول « بحق الرحمة ، امكثى ! » وطوق خصرها بذراعه . فاندفع الدم إلى وجهها وتراجعت قائلة : لا ! سيدى أنت تنتهز خطورة مركزى بحماقة . إننى أستحق الرحمة ، ولكنى لست للبيع . » وخرجت فى ثورة من الهياج والغضب

وخطر لها فجأة أن تذهب الى رودولف . فدهش لرؤيتها . ولم تخبره بمطلبها بادئ الأمر . ورحب بها وأظهر أسفه لانفصالهما واندفع يقول إنها المرأة الوحيدة التى أحبها ورجاها أن تخبره بما يزعجها . ولما طلبت منه أن يقرضها ثلاثة آلاف فرنك تراجع وأخبرها بأن هذا المبلغ غير موجود لديه

فقالت « ليس لديك ! كان الأجدى أن أوفر على نفسى هذا

الذل . لم تحبني بتاتاً ، ولست خيراً من الآخرين . »

وخرجت وهي تكاد لا تمي . ومرامامها الماضي سريعاً . وشعرت بأنها ستجن ، وبأن روحها تتسرب منها كما يترف الدم من الجريح . وأخيراً دخلت من الباب الخلفي لصيدلية (هوميه) وهو يتمشى . واستطاعت أن تحصل على مقدار من السم ، وعادت إلى منزلها . ووجدها زوجها المسكين تكتب خطاباً ، ولما سألها عما حدث أجابته مشيرة إلى الخطاب « يجب أن تقرأ هذا غداً . » ورجته أن يتركها وحدها ، استلقت على الفراش ، وبدأت تظهر عليها أعراض السم ، وأحست بالظمأ وبطعم الحبر . وسألها زوجها عما تشكو فلم تجب . وبعد قليل بدأ القيء . وأصبح وجهها أزرق اللون ، وأخذت أسنانها تصطك ، وبصرها يضطرب ، ولما عاد يسألها في قلق أشارت إلى الخطاب . ولما قرأه صرخ طالباً المعونة . وحضر الصيدلي هوميه ، وأرسلا إلى طبيبين ، واضطربا في عمرات من الدهشة الذاهلة . ثم ارتمى شارل على الفراش ينتحب . فقالت له :

ـ لا تبك ، فلن أحتمل زيادة على ذلك

ـ لماذا ؟ ما الذي دفعك إلى ذلك ؟

ـ كنت مرغمة يا صديقي

ـ أما كنت سعيدة ؟ أهي غلطتي ؟ لقد فعلت كل ما أستطيع

ـ بلى ، ذلك حق . . . أنت طيب جداً

وعز على الرجل فراقها وقد أقرت أنها أحبته أكثر من أي لحظة خلت . لم تعد تكره أحداً الآن . والصوت الدنيوي الوحيد الذي كانت تسمعه هو عويل قلبها المسكين ، الذي كان هادئاً خافتاً ، كالصدى الأخير لموسيقى بعيدة . وقالت وهي ترفع نفسها على مرفقها « أحضروا طفلتي . »

وحضرت وخاطبتها ثم أبعدتها . وأتى الطبيب ، ولكنها بدأت تبصق دماً ، وبدأت أعضاؤها تتشنج ، وتغطى جسمها ببقع سمراء ـ وحضر الطبيب الآخر فرآها ثم قال لزوجها :

ـ كن شجاعاً يا صديقي المسكين فما نستطيع شيئاً

ماتت المسكينة فأخذ كل شخص يستغل الموقف. معلمة الموسيقى تطالب أجر ستة شهور مع أن مدام بوفاري لم تأخذ درساً واحداً ، وصاحب المكتبة يريد اشتراك ستة شهور الخ

وأرسلت مدام ديبوى تنبئه بزواج مسيو ليون ديبوى بالآنسة ليوكادي ليبوف . وكتب شارل بهنئها ويقول : « لشد ما كان يسعد زوجتي أن تعلم ذلك ! »

وفي ذات يوم وهو يهيم بالمنزل عثر في الغرفة العليا على كرة من الورق الرفيع ، فتحها فاذا بها خطاب رودولف الأخير ؛ وكانت صدمة عنيفة . ورأى حرف (ر) وعرف من هو ؛ ولكنه عاد يقول : ربما كان ذلك تجاذباً روحياً فحسب . لقد كانت محبوبة من كل إنسان

ولكي يسعدها وهي ميتة كان يعيش كما كانت تهوى وتفكر . كان يلبس أحذية لامعة ، وربطات رقبة بيضاء ، ويضع على شاربه الأصباغ ، ويستدين المال بالكمبيالات ـ وبالجملة كانت تؤثر فيه من وراء اللحد

واضطر أن يبيع الأثاث . إلا أنه لم يمس غرفتها بل ظلت كما كانت . وكان يذهب اليها دائماً بعد العشاء ، ويضع النضدة المستديرة بجوار المدفأة وكرسيها بجانبها وكرسيه بالجانب الآخر ؛ واحتراماً لها لم يفتح درجها السري الخاص . ولكنه جلس أمامه يوماً وفتحه . وكانت كل خطابات ليون فيه . فقرأها وأخذ يبكي ويصرخ ، ثم وجد رسائل رودولف وصورته أيضاً

ودهش الجميع للانحطاط الذي عراه ، وانقطع عن الخروج ورفض أن يعود مرضاه . ولكن بعض المتطفلين كان يتسلق سور الحديقة المرتفع ويدهش إذ يرى الرجل في ثياب رثة ، وحال سيئة . وفي الأماسي الصيفية كان يصطحب ابنته إلى المقبرة ، فلا يعودان إلا بعد أن يسدف الليل

وذهب يبيع جواده فقابل رودولف ، فدعاه هذا في جرأة ليشرب زجاجة من الجعة بالحانة . وأمام الرجل تاه شارل في أفكاره . وأمام الوجه الذي أحبته كاد يظن أنه يرى شيئاً منها . كان ذلك عجباً . وأوشك أن يتمنى أن يكون ذلك الرجل . ولم يصغ لحديثه ، ولكنه قال أخيراً :

— « إنني لا أحمل لك حقداً » ووضع رأسه بين يديه ، وقال في صوت ضعيف : « لا أحمل لك حقداً » . ثم أضاف هذه الكلمات الرفيعة وهي المرة الوحيدة التي قال فيها شيئاً غير عادي :

— « وكانت غلطة القدر »

وفي الساعة السابعة من اليوم التالي وكان جالساً على مقعد في ممشى الحديقة جاءت برتا الصغيرة التي لم تره منذ الأصيل لتدعوه الى العشاء . وكان رأسه مسنداً الى الحائط ، وعيناه مغمضتين ، وفمه مفتوحاً ، وخصلة من الشعر الفاحم في قبضة يده ، وقالت « تعال يا أبت . » وظنته يريد أن يداعبها ، فدفعته بلطف فسقط على الأرض ميتاً !

محمد سليمان علي